بلاغة ما بعد حزيران ...

بقلم محيي الدين صبحي

اذا كانت المسرحية وسيلة التطهير الفردي ، فان الشعر وسيلة للتطهير الجماعي . ذلك أن دور الشاعر في أمته يتعاظم كلما اختلطت القيم ، وتبلبلت الالسن ، وتعددت الدروب ، ووجد كل شيء تبريرا لوجوده . ففي حالة الفوضى والتشويش يزداد دور الشاعر أهمية وايجابية بخط بياني متصاعد الى الذروة التي تستقطب وعي الامة ، فتركز طاقاتها حول بؤرة واحدة حتى يتم الانقلاب الكبير ، حين تتراكم التغيرات الكيفية تراكما يبلغ من الشدة والكثرة أن يتحول التغير الكيفي الى تغير نوعي . فيعلو عندئذ العمل على القول ، وتسبق الخطوة الموعد ، ويغدو كل ما تنجزه الامة أو ترفضه ، تجسيدا لقيمة من قيمها الذاتية ، وتعبيرا عن شخصيتها القومية .

ان الشعر حارس لقيم الامة . ومحددا لشخصيتها ، وهو اداة عميقة الاتصال بوعي الجماعة التاريخي ، وارهاصها الاخلاقي ، بحيث تندر أشد الندرة فترات المصير التي لا تجد شاعرا يصور الشرط الانساني الذي تعيش الامة ضمن ظروفه تصويرا يضخم الجوانب السلبية ويشجبها ، ويبلور الموقف الذي تتطلع اليه الجماعة ، اما عن طريق الدعوة المباشرة الى قيم وأخلاق جديدة ، أو عن طريق الايحاء بذلك . انما يختلف الشاعر العبقري عن الشاعر المصلي في أن الاول ذو وعي يحيط بالاحداث ويستشرق المستقبل ، وأن الاخر متأثر بالوقائع خاضع لضغطها بحيث يكاد لا يميز العلة من المعلول فضلا عن الرؤيا والتوقع وعلى هذا نرى في الشعر الطليعي عاطفة بلورها الوعي ووعيا مركزا في صور ، وصورا تتضمن خلفية خلقية تطل على الفاجعة الانسانية التي ألمت بحياة الامة .

ولقد كان الخليفة عمر بن الخطاب يشير الى دور الشاعر في حماية قيم الامة حين قال : « كان الشعر علم قوم لم يكن عندهم علم أصلح منه . حتى أغناهم الله بالاسلام . » ذلك أن الشاعر الجاهلي في اشادته بقيم النجدة والكرم والبأس ، انما كان يتغنى بنموذج انساني هو في التصور أكثر منه في الواقع ، لكنه انما خط دربا في عالم القيم لشخصية الانسان العربي الضارب في حمية الجاهلية ، فلما جاء الاسلام أزال التناقضات المحلية بازالة الخلافات القبلية والوراثية فاتجه جهد العرب الموحد نحو تحرير المناطق التي كان ينتشر فيها العرق السامي في شمال افريقيا والشرق الاوسط ، وكان قوام العربي في بناء شخصيته رسالة الاسلام وقيم النخوة والجود والتسامح .

ان الوجود العربي اليوم أكثر جاهلية مما كان قبل الاسلام ، وأكثر تعرضا للفناء بما بين السيف والصاروخ من فروق تكنيكية . لذلك فان مهمة الشاعر كزارع للقيم وباعث وحارس لها . أعظم من مهمته في أيام الجاهلية بما لا يقاس من المرات ، وخاصة اذا وضعنا في حسابنا أننا لا نعيش في عصر النبوات ، وانما في عصر القوميات والتصنيع والتوزيع العادل للدخل الذي يجب أن يرتفع باستمرار .

فاذا أضفنا أننا نتعرض لغزو استيطاني كذلك الذي مارسته في وطننا روما قيصر وروما البابا . وأنه لن ينقذنا من الفناء غير نجاحنا في تكوين قوة عربية ذاتية ـ أدركنا مدى حاجتنا الى القيم والى شاعر يبلور قيم العصر الحديث ورؤيا دولة العرب القومية الموحدة . ولقد غدا كل عربي يعلم حق العلم أن نكبات العرب لن تنتهي الا اذا تجاوزوا تناقضاتهم الداخلية ، وقضوا على دولهم المجزأة بايديهم في سبيل انشاء دولتهم القومية ، قبل أن يقضي المهاجرون الاغراب على هذه الدويلات التي لا تحمل من الدولة غير اسمها . ذلك أن الهزيمة قدر سيظل جاثما على المصير العربي ما دامت للعرب دول متعددة ومصالح متضاربة . فليس تغيير علاقات الانتاج كافيا لصنع دولة متقدمة ، وانما يجب أن يصحب ذلك التغيير تغيير آخر في كمية الانتاج بحيث تشمل هذه الكمية جميع المنتجات العربية من مواد خام ونصف مصنعة، بالاضافة الى التصنيع الكامل . لقد هزم العرب مرتين ، مرة في ظل الانظمة الرجعية ومرة في ظل الانظمة التقدمية لبقاء علة التجزئة وتأصلها في الوجود العربي ، بمرور الزمان وتضارب المصالح بين هذه الدول . فضلا عن تغاير الاستراتيجية بين دولة وأخرى من الدول العربية التقدمية ـ لكي لا نقول عن الدول الرجعية اكثر مما هو معروف معاد . هذا الى ان الامل العربي معقود منذ عشرين عاما الى اليوم بالثورة والثوار ، ـ أو بمن كانوا يدعون ذلك وهم خارج الحكم .

ان مغزى الهزيمة لا يرتد فقط الى السياسة الداخلية للدول العربية بل يرتد أولا وبالذات الى العلاقات العربية السيئة بين هذه الدول التي عجزت عن أن تنسق خططها وتنفذها ضد العدو المشترك ، ضد العدو القومي الذي غدا قادرا على أن يجهز على اية دولة عربية اذا واجهته منفردة . ومع ذلك فان المجابهة مع العدو ـ وبالرغم من خسارة حربين ـ ما زالت عمليا مجابهة انفرادية تضمن النتيجة لصالح العدو ، وتهدد أية دولة عربية بالسقوط . ذلك أن النزاع المسلح في فلسطين يضطلع داخل الحياة العربية ، بالدور الذي جعله ماركس من نصيب الحرب :

« ذاك هو الجانب المثير في الحرب : فهي تمتحن الامة . وكما أن المومياءات تنحل فور تعرضها للهواء ، كذلك تلفظ الحرب حكمها بالموت على جميع المؤسسات الاجتماعية التي لم تعد تمتلك قوة الحياة.»

والمؤسسات الاجتماعية التي لم تعد تمتلك قوة الحياة هي الدول الاقليمية التي أنشئت على انقاض الوطن العربي ، ثم تركت طعمة للنفوذ الاجنبي وللغزو الصهيوني . ومع ذلك ، وخلال عشرين عاما ، فشل القائمون على الكيانات العربية في تحقيق أي توازن أو تقدم نحو موقف قومي من حركة غازية تتهددهم جميعهم بالفناء كطبقة حاكمة لكيانات مهترئة . أما الشعب وقوميته وتطلعاته فله بعد سقوط الكيانات أن يبحث عن مصير آخر ..

ان الامة العربية بعد حزيران قد انطوت على نفسها تستبطن ذاتها. وهي بعد يوم حزيران ارهاص مجهض يترنح على عتبات العصر . ان امة جريحة ثكلى ، كالامة العربية ، تنطوي على نفسها من هول الفجيعة ، لهي أمة تحتاج الى صوت شاعر يوقظها من حالة الذهول ، ويوصل اليها أنباء استبطاناتها ونتائج تأملاتها ، كما يعيدها الى جادة التطلعات والطموح ، ويغرس فيها من نبوته الرؤيا بالمقاومة والنصر . فهي تحتاجه معبرا عن سخطها ، مثلما تحتاجه ملهما لحقدها . وهي تحتاج اليه ناقدا لعيوبها ، مثل ما تحتاج اليه هاديا الى فضائلها . فهي تتعرف من خلاله على ذاتها ، مثلما تستعيد من خلاله ذاتها .

ذلك أن الشاعر هو المعبر عن اللاشعور الجمعي ، مثلما أنه يعبر عن الوعي والمتطلبات الجماعية . انه وحده يتكلم باسم الامة حين يعجز الاخرون غيره عن التعبير عن تطلعاتها ومطامحها . أو يلتوي عليهم القول لمرض في نفوسهم .

وقصيدة الشاعر عبد الوهاب البياتي « بكائية الى شمس حزيران» التي القاها في تأبين المرحوم زكي الارسوزي في دمشق في مطلع شباط من العام الحالي ، تمثل صورة فضلى من صور الشعر القومي

المرتبط بمرحلة حزيران ، والمعبر عن واقع فاسد لم تكن مرحلة حزيران سوى أبرز نتائجه المرئية المعلنة .

***

تنطلق القصيدة من خلفية تتضمن وعي الشاعر بمهمته في التعبير عن الشعور الجمعي ، ومن وعي سياسي بنقائص الواقع العربي التي أشرنا اليه في المقدمة والتي نتج عنها :

الجموع غير المنظمة ، التفرقة العربية ، الكذب السياسي ، الادعاء العسكري ، ضعة التشرد والام المشردين ..

صوت المتحدث في القصيدة ينطلق من الجماهير . والمتحدث واحد من المشردين ، يعرض بوعي غامض ، بعض تفاصيل الواقع العربي الفاسد ، ويتذمر بصوت مختلف العلو . ثم ينهي كلامه بدمدمة غامضة، هي بين التحدي والانين .

لعل احدى قدرات هذه القصيدة المؤثرة تنبع من لهجتها المباشرة ، ومن انطلاقها بالحديث بضمير الجمع المتكلم . مما يجعل الشاعر لسانا للامة وفردا يعاني ما وقع على أفرادها من ذل وضيم وأذى .

كما أن جانبا كبيرا من طاقتها الموحية يكمن في أنها تتجنب الحديث عن العدو ، وتحصر الحوار بين ضميرين يمثلان الامة : ((نحن)) المتضررون ، و ((هم)) المتسببون . ان في هذا التركيز ــ مقصودا أو غير مقصود ــ كشفا عن يقين في قلب كل عربي ، مفاده أن قوة العدو الفعلية خرافة امام قوتنا الممكنة . وأن المعركة ، بل كل معركة ، لا يقرر نتيجتها سوى الوضع الداخلي للامة العربية . ليس للعرب ما يعاتبون العالم عليه من عدد وثروة ، فعتبهم مقصور على خلافهم ، وقصورهم مردود الى تفرقهم .

هذه المنطلقات الثلاثة مع الخلفية السياسية القومية ، خلقت دهليزا سريا يصل بين الشاعر من جهة وبين ضمائر مستمعيه وقرائه من العرب . فاللهجة المباشرة مقرونة بالشعر السياسي منذ أيام الجاهلية . وصيغة الجمع المتكلم استئناف من الشاعر الى الجماهير التي تواجهه ، ليتوجه الجميع ضد صناع النكبة الغائبين ، أما نحن الحضور ، نحن الشعب المشرد المهدد ، فلنا ثأر عند المنتصر والمهزوم على السواء .

***

طحنتنا في مقاهي الشرق حرب الكلمات
والسيوف الخشبية
والاكاذيب وفرسان الهواء
نحن لم نقتل بعيرا أو قطاة
لم نجرب لعبة الموت ولم نلعب مع الفرسان
أو نرهن الى الموت جواد
نحن لم نجعل من الجرح دواة
ومن الحبر دما فوق حصاة
شغلتنا الترهات
فقتلنا بعضنا بعضا وها نحن فتات
في مقاهي الشرق نصطاد الذباب
نرتدي اقنعة الاحياء في مزبلة التاريخ ،
أشباه رجال .
لم نعلق جرسا في ذيل هر أو حمار
أو نقل للاعور الدجال :
لم لذت بأذيال الفرار ؟

ها هو المتحدث يبث الشكوى المريرة من ((حرب الكلمات)) ، حرب المناظرات بين الاحزاب وبين الحكومات العربية . الحرب البيزنطية التي تهدد فيها كل فئة ما عداها من الفئات ، وتزعم انها قادرة على البطش بأعدائها في الداخل والخارج على السواء ، في حين أنها تقدم التنازلات لكل من يتهدد سلطتها بالبطش تهديدا حقيقيا . طحنتنا في المقاهي المناظرات التي تعقد وتشهر فيها السيوف التي لا تقطع ، ويجري فيها التغني بمنجزات كاذبة،ويبرز فيها الى الحلبة فرسان جبناء يقاتلون حيث لا مقتل ولا مقاتل . ان الفجوة بين القول والعمل متاهة تتحطم في معارجها قدرات الامة على الثورة والبناء معا .

ان هذا التقرير لاكبر أمراض الامة في زعاماتها وقواعدها على السواء ، يمر دون حاجة الى برهان ، لانه يستأنف الى ضمائر المستمعين والقراء وذاكرتهم القريبة وذكرياتهم البعيدة . فما من امة تكاثر عليها الاعداء وسلبوها وجودها ذاته ثم اكتفت بسيل اللفظ الجارح والتحذيرات المخدرة للشعب ، كالامة العربية . كأن الالفاظ سحر يرمي به الساحر أعداءه فيشلهم ، وهو انما يشل أهله وشيعته عن المبادهة والرد الصحيح بسيل من التطمينات الكاذبة والادعاءات المزيفة .

بعد أن انصرفنا عن النضال بمناقشة نظريات النضال ، وعن الانجاز بالتغني بفوائد الانجاز ، يمضي الشاعر الى تقرير حقيقة أبعد خطرا في حياة الامم ومصائرها . فالشعب العربي اذ غدا دون ممارسة فعلية للكفاح ، فقد عقيدة الموت . فنحن ــ القطعان السائبة من المشردين ومن السكان المهددين بالتشريد ــ لم نجرب لعبة الموت ، ولم نعد نمتاز أو نملك روح الفروسية التي تقرن الحياة الكريمة بالموت الكريم :

((عش عزيزا او مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود))

بل فقدنا حتى اقدام الصياد على فريسته ((نحن لم نقتل بعيرا أو قطاة)) بله معاركة الفرسان وملاعبة الجياد في ساحات الشرف . ذلك أن عقيدة الموت لا تولد في ضمائر الافراد الا خلال الكفاح اليومي لممارسة حرية المصير وحرية الضمير . وقل ــ بل من المحال ــ ان تنبثق عقيدة الموت في أمة تعيش على السفسطة النظرية والتبجح الكاذب وبطولة الانجازات المدعاة . ان الشجاعة لا تصدر عن القوة الحيوانية بل عن وضوح قضية الامة في أذهان ابنائها وضمائرهم ، ثم عن تصميمهم على تحقيق العدالة التي يؤمنون انها من حقهم وواجبهم .

لكن الشاعر يذكرنا باننا لم نفكر ــ بالرغم من المحاورات العقائدية أو بسببها ــ حق التفكير بواقعنا ، ولم نضع يدنا على أمراضنا ولم نكشف علة تخلفنا : ((نحن لم نجعل من الجرح دواة)) أي أننا لم نكتب عن قضايانا ولم نحلل سبب آلامنا . اننا لم نحدق في نكباتنا ، فضلا عن كشف الطريق الى تلافيها : ((ومن الحبر دما فوق حصاة)) وكذلك لم نبذل دمنا لتحقيق ما نؤمن أنه طريق لخلاصنا .

ان أمة تقنع بحرب الكلمات . وتعيش دون منجزات ، لهي أمة فقدت عقيدة الموت . وانصرف مفكروها عن التأمل بكوارثها فانصرف أبناؤها عن التضحية بنفوسهم في سبيل ايمانهم . وتلهى الجميع بالترهات من القول والعمل فدب الخلاف والشقاق في صفوف الامة فقتل أبناؤها بعضهم بعضا بدواع وأسباب متعددة ، سادرين في غيهم عن العدو الخارجي ،فلما أفاقوا من غمرتهم ، بعد أن تفرق بأسهم بينهم ، وجدوا أنفسهم فتاتا مشردين في المقاهي ، عاطلين ــ كشأنهم أبدا ــ عن كل قيمة تمنح الانسان ــ بفضل عمله وانجازاته ــ كرامته وتثبت له ايمانه بنفسه أو بمجتمعه . لقد حرم مثل هذا الجيل حتى من حق تحديد المسؤول عن تشرده أو من شرف العمل لكسب قوت يومه ، فأقام على مزبلة التاريخ يصطاد الذباب ويتلقى الصدقات ، ويموت بالمجان دون أن تترك حياته أثرا أو يخشى قاتله ثأرا .

هذه النقائص تشمل الامة جميعها ، حكاما ومحكومين ، معارضة وحكومة ، شعبا ودولة وقيادات . والشاعر يسردها على لسان واحد من المشردين . فيحقق بذلك هدفا مزدوجا :

الهدف الاول أنه يحقق الاندماج بين الشاعر والشعب بحيث ينطلق صوت الشاعر من وسط هذه الجماهير التي ضيعها قادتها وأضاعت قضيتها في لغط المقاهي وأرصفة المنافي ، وبذلك يتجنب البعد الذي تخلقه الرفعة الخطابية في المدرسة الرومانسية ــ الوطنية التي يقف فيها الشاعر من الجماهير موقف الموجه المرشد الواعي أمام حشد من الذين ينتظرون كلمته ليقلبوا الارض عاليها سافلها . وهي المدرسة التي بدأت بعنترة بن شداد ثم المتنبي صاحب الاوامر الخلقية ((عش عزيزا)) وانتهت بسليمان العيسى والشعر الفلسطيني بعد

النكبة ، حيث ختمها يوسف الخطيب بقصيدته الغاضبة العصماء :

اكاد أومن من شك ومن عجب   هذي الملايين ليست أمة العرب

فالشاعر في مثل هذا الموقف معصوم عن أخطاء قومه ، منزه عن معايبهم . ينظر اليهم من على منبره وهو مندهش من صغائرهم ، متطهر من ارجاسهم ، يهش عليهم بعصا مواعظه ويعدهم أن يلتقي بهم في اليوم الموعود ، على الارض الموعودة .

ولا كذلك البياتي في هذه المرثية . ان الشاعر والمتكلم والمستمع يشتركون في بث الشكوى ومذاكرة الاخطاء ومعاناة النتائج . وهو بهذا الاسلوب في المحاورة يتجنب البلاغة المقعقعة في القصائد الخطابية لانه لم يعد بحاجة اليها ، ويتلاءم مع مناسبة الهزيمة التي لم تعد تحتمل أي فخر أو تهديد أو وعيد بل تناسب « مقتضى الحال » ما دامت البلاغة هي « تصريف القول بحسب مقتضى الحال » . اذ أن القعقعة البلاغية كانت تصلح يوم كان العرب متحدين في دولة كبرى تستطيع أن توعد وتنجز وعيدها ضد من يتجرأ على سلامتها أو يهدد السلام العربي ، ما بين الصين واسبانيا . وقد تظل تصلح الى صباح الخامس من حزيران بحسب ما تصوره البعض من ان بعث الامة العربية يمكن ان يتم بترداد خطابات مدوية وتكرار قيم الشجاعة الفردية البدوية بدلا عن توجيه الجماهير الى بناء الدولة – الامة بشجاعة التضحية الجماعية .

ان بلاغة ما بعد الخامس من حزيران تتطلب الكثير من التواضع والمقدار الاكثر من الوعي ، فضلا عن الشعور العميق بالمسؤولية والمشاركة فيها ، بغية توصيل رؤية قومية واضحة لكل الجماهير التي ثقفها التعليم والتجارب الفاشلة حتى لم تعد تنساق – أو هكذا نأمل – في شطحات العاطفة التي تثيرها المهاترات أو البلاغات أو البيانات أو النوايا الطيبة والاحلام اللذيذة . أن هذه البلاغة المنشودة ، بلاغة تحليلية ، تنبثق من الواقع ولا تبتعد عنه ، دون ان يفصلها عن الجماهير حاجز من البلاغة الاسلوبية ولا من الافكار الضبابية .

وأسلوب البياتي في هذه القصيدة يجسد هذه الصفات فيحقق المشاركة بين القائل والمستمع من جهة ، ومن جهة أخرى يحقق الهدف الثاني ، في أنه يحدد مسؤولية الجماهير في الاخطاء التي ارتكبت قبل الخامس من حزيران .

فهو ، وان كان ملتزما للجماعة ناطقا باسمها ، لم يتملق نرجسيتها فيجمدها تجميدا زائفا ، ولم يبتعد بها عن مسؤولياتها الحقيقية . فالاخطاء التي وقعت قبل حزيران انما وقعت على مرأى ومسمع من الجماهير التي لم تحرك ساكنا لتقوم الاعوجاج بسيوفها ، بل كانت في كثير من الاحيان الاداة الطيعة لتنفيذ مآربهم « هم » الذين ساقونا الى النكبة . ف « نحن » اذن شركاء في الجريمة ، ويجب أن نحدد دورنا في النكسة التي حلت بنا .

نحن جيل الموت بالمجان ، جيل الصدقات
هزمتنا في مقاهي الشرق حرب الكلمات
والطواويس التي تختال في ساحات موت الكبرياء
ومقالات الذيول الادعياء
آه ، لطخ هذه الصفحة ، هذا الخبر الكاذب
يا سارق قوت الفقراء
حذاء الامراء
بدم الصدق ، ومت مثل فقاعات الهواء
لم نعد نقوى على لعق الاكاذيب وتحبير الهراء
واجترار الترهات .

بعد ان حدد الشاعر – بنوع من النقد الذاتي ، أن صحت التسمية – دور الشعب في الهزيمة وذكر العلل التي تستنزف قواه ، انتقل الى تحديد المسؤولين المباشرين عن الهزيمة . وهم مشعلو حرب الكلمات ، والطواويس المتكبرة ، والادعياء من الكتاب والصحفيين المرتزقة . لكنه لم يكد يسميهم حتى تمزق حقد المكتوم عن كابوس أو رؤيا بالعقاب المحتوم الذي لا بد وأن تنزله بهم الجماهير التي اتخمها القرف .

فالشعب الذي أسيء اعداده لملاقاة عدوه ، يعيش على الصدقات ويموت بالمجان : يموت بيد العدو موت الابادة والنكال ، دون أن يخشى ذلك العدو ردعا أو انتقاما . ويموت بالمجان من عوادي الطبيعة بالبرد والمرض ، مثلما قد يموت من الجوع حين لا تكفيه صدقات الدول الصديقة والشقيقة .

مثل هذه الجماهير الغافلة ، زج بها في متاهات حروب الكلمات والخلافات السياسية والنزعات الاقليمية . دون أن تظفر منها بطائل أو تجد لها مخرجا – لان من زجوا بها في هذه المتاهات لا يريدون أن يصلوا الى نتيجة سوى هدر المراحل واضاعة الفرص لاي تقدم يمكن أن تحققه الجماهير خلال نضالها ضد التجزئة والتناقضات العربية الموجودة أو المفتعلة .

اشترك في زج الجماهير في هذه الضلالة الجهلاء ، فئتان : « الطواويس التي تختال في ساحات موت الكبرياء » وهم المتجبرون الذين يبطشون بأبناء الشعب ثم يحنون هاماتهم للغزاة في ساحات القتال . وفئة الكتاب المأجورين والصحافيين المتنفعين ،وجميع أدعياء الفكر ومنتحلي الثورية ممن يزيفون الحقائق ويروجون للاباطيل . غير أن رؤيا الشاعر أو كابوسه ، يجعلانه يطلق صيحة الانتقام ، بأن كل متملق منافق سيلطخ بدم الصدق الاخبار الكاذبة والصفحات الملفقة التي حبرها .

هنا لا بد من الاشارة الى التحديد الطبقي الذي يطلقه الشاعر على المسؤولين عن هزيمتنا : « سارق قوت الفقراء وحذاء الامراء » . هؤلاء هم أبناء البورجوازية الصغيرة الذين يسرقون الفقراء جهدهم ويسلبون الاقطاع ارثه . وهم الذين يمتازون بضيق الافق والشراهة على حساب الطبقتين الاخريين – وعلى حساب الوطن أيضا . ان البورجوازية الصغيرة ستلاقي جزاءها على أيدي الجموع التي ايقظتها هزيمة حزيران حتى لم تعد تستسيغ الشعارات أو الاساليب التي كانت متبعة .

في هذا المقطع من القصيدة نجد التقابل واضحا بينه وبين المقطع الاول ، بحيث يملأ المقطع الثاني الفجوات التحليلية في الاول . فالجماهير المستلبة انما سلبتها البورجوازية الصغيرة المدعية . وافتقاد عقيدة الموت وانعدام تجربة الفروسية انما يرجع سببه الى الطواويس الذاهبة بنفسها ، العمياء عن ذلها . وأما حرب الكلمات فانما يشعلها « الذيول الادعياء » من تجار الكلمة ويبلغ التوازن تمامه بالتعادل بين الاستلاب الذي تعيش فيه الجماهير نتيجة الوضع الزائف الذي فرضه عليها الطواويس ومحترفو المهاترات العقائدية ، وبين الحقد المستعر في صدور المظلومين الذين سيأتي يوم ينبذون فيه أغلالهم ويثورون على استلابهم فينتقمون من مستلبيهم والمتاجرين بقضيتهم والمتنفعين بآلامهم

وهكذا يستمر الاسلوب التحليلي في اداء رسالته البلاغية والتاريخية نحو الادب والجماهير ، بتحديد الادوار واستشراف الافاق، مع نبذ كل تقاليد الشعر الخطابي السابق . فكأن هذه القصيدة اعلان عن انتهاء دور « شاعر القبيلة » وبيان عن بدء دور « شاعر الامة » . فشاعر القبيلة يتوجه الى الغرائز الجماعية لدى جمهوره فيهيجها ، أما شاعر الامة فيتوجه الى ضمير امته وعقلها ، يستأنف اليهما بالتحليل ومحاكمة الوقائع والجدل – دون حتميات ولا شطحات. لقد تطورت حياة المجتمع العربي خلال القرن الاخير تطورا نضج معه الوجدان الجماعي المدني بحيث الحت الحاجة الى فكر تحليلي واضح ، ينطلق من معطيات الواقع القومي الى تطلعات الامة واحتياجات المرحلة ومقتضيات العصر ، اذ يجب ألا ننسى أننا على أبواب القرن الواحد والعشرين وان القنبلة الذرية للعدو لن تبعد اكثر من دقائق معدودات عن أية عاصمة عربية . ان هذه الحقائق جميعها تزحم الاطار الادبي والفكري بالاف المطاليب التي لا تترك مكانا لشعر قبلي أو تفكير اقليمي

– التتمة على الصفحة ٧٠ –

بلاغة ما بعد ٥ حزيران

– تتمة المنشور على الصفحة ١١ –

***

أو جمود مذهبي أو مصلحة ضيقة لجماعة من الجماعات لان هذا كله قد أدى وسيظل يؤدي الى مزيد من الهزائم والى المزيد من الذل والشقاء للجماهير العربية التي تقسمتها الدول المصطنعة . هذه الجماهير التي غدت تجتر حقدها ونقمتها مع الالم والهوان بحيث يتراوح الصوتان في غمار المحنة بين تهديد بالانتقام لا يلبث ان يتلاشى تحت اصداء الانين والالم ، لكن الشعور الفطري يعود ليؤكد من جديد « نحن لم نهزم » :

نحن جيل الموت بالمجان ، جيل الصدقات
لم نمت يوما ، ولم نولد ، ولم نعرف عذاب الشهداء
فلماذا تركونا في العراء
يا الهي ، للطيور الجارحات
نرتدي اسمال موتانا ، ونبكي في حياء
آه ، لم تترك على عورتنا ، شمس حزيران رداء .
ولماذا تركونا للكلاب ؟
جيفا دون صلاة
حاملين الوطن المصلوب في كف ، وفي الاخرى التراب
آه ، لا تطرد عن الجرح الذباب
فجراحي فم أيوب ، والامي الانتظار
ودم يطلب ثار .
يا اله الكادحين الفقراء
نحن لم نهزم ، ولكن الطواويس الكبار
هزموا هم وحدهم ، من قبل أن ينفخ ديار بنار .

ان هذا التوكيد بان الجماهير لم تهزم ، لا يستند الى حتمية ايديولوجية ولا الى رؤيا خطابية ، وانما يعتمد على الواقع التاريخي وعلى التحليل المنطقي وعلى الادراك السليم لمجريات الامور . فشعر الرسالة يعتمد قبل كل شيء على الحس السليم ، لانه يعتمد على وضع المسالة ضمن حدود الادراك الفطري والتأثير في وجداننا ... وليس أقوى تأثيرا في وجداننا القومي من صورة عرب المناطق التي هاجمتها اسرائيل ، وهم يموتون موتا غير مجيد أو يتابعون حياة غير كريمة ، مشردون حفاة في العراء ، يعيشون بين اليأس والبكاء . اما الاموات فقد تركت جثثهم للكلاب ، لان زملاءهم في عجلتهم لم يكرموا موتاهم بالدفن ولا شهادتهم بالصلاة . سوى أن كل قتيل رمز لفداء أمة لم يطل دمها . اذ انه استشهد دفاعا عن شعب مستلب ووطن مسترق. فهو يفرض احترامه على وجداننا بقدر ما يفرض واقعنا على وجداننا النقمة والحقد – لكن لهذا الامر حديثا آخر ، دعونا نتجنبه . فما هذه الجراح الا صبرنا الطويل الذي كاد أن ينتهي ، وما الامنا سوى بداية النهاية . ان المنا ودمنا انتظار للثار والخلاص . فبعد كل شيء ، لسنا نحن من خاض المعركة وانهزم ، بل ان من خاضوها وهزموا فيها طغمة من الطواويس ذات المظهر الخلاب والقلب الفارغ ، وحين ننتهي منهم نتسلم مصيرنا بأيدينا ، فنملك أنفسنا ونملك وطننا ونملك النصر بأمة موحدة متقدمة . لا تضللها حرب الكلمات ولا مقالات الذيول الادعياء .

على أن جو الصور هنا جو انساني يستدر العطف على الانسان المستلب المشرد بعد أن حلت به النكبة وقصمت ظهره الهزيمة . لذلك تخلو الصور من الهوام والدواب التي كانت تزدحم في مطلع القصيدة. وهي أن وردت فللزيادة في معنى الاستلاب من انسان اقتلع من ارضه عسفا وطوح به في مجاهل الغربة والمستقبل المظلم . ففي العراء حيث المرض والجيف ، نجد الجوارح والكلاب ، للتأكيد على المنفى الاجرد وسياسة دفع العرب نحو الصحراء ليرتع المهاجرون الغزاة في بحبوحة الهلال الخصيب . أما صيحة الشاعر : «آه ، لا تطرد عن الجرح الذباب» فهي أجمل استعارة في بابها على اعتبار أن السياق سياق بث وشكوى من جهالة الطبقة الفوقية في الوجود العربي ، خاصة وان هذه الشكوى تأتي على لسان رجل من الشعب يمتنع في العادة عن الخوض في موضوعات السياسة « العليا » حتى ولو ادت اساءة القائمين عليها الى تشرده وبؤسه . فاذا انكشف الجرح الذي يغطيه الذباب (الارهاب ، اليأس ، تصنع اللامبالاة) ظهر تحت الذباب حقد ونقمة لا تغير وجه المنطقة ، بل قد تغير وجه الارض ايضا . وقد أشارت نهاية المقطع الى ذلك اشارة خفية عن طريق عرض تلك القناعة العمياء المطلقة « نحن لم نهزم » !

ومع ذلك فان المرثية التي ألقيت في دمشق خير ما قيل عن استلاب الانسان العربي تحت أنظمة حكم تبتزه وتبطش به وتضلله ثم تسلمه الى كوارث الهزيمة وبؤس التشرد وعوادي الطبيعة ، دون أن تجد هذه الانظمة عقابا من الجماهير السائبة ولا رادعا من وعيها . فهذه الجماهير التي تعلن « لم نمت يوما ، ولم نولد ، ولم نعرف عذاب الشهداء » قد حرمت حق الموت وحق الحياة على السواء ، بل استمرت تتشيأ وتتحيد حتى غدت منفية وهي في الوطن ، ميتة وهي في الحياة ، مستسلمة وهي في ساحات المصير . على ان وصف الاستلاب في المطلع اكثر مباشرة وتأثيرا منه في النهاية ، لان النهاية تقرر « نحن لم نهزم » اما المطلع فيؤكد على عزلة هذه الجماهير وان لا دخل لها في المعركة . فمنذ أن يبدأ الشاعر قصيدته بهذا المطلع الاخباري التقريري المباشر – والمحزن أيضا :

طحنتنا في مقاهي الشرق حرب الكلمات

ينتقل الى شرح ما في هذه الحرب المزيفة من تفصيلات مؤسية . فيستعير من التراث الانساني صورة « فرسان الهواء » التي رسمها سرفانتس لدون كيشوت . كما يستفيد من لافونتين قصته التي تحتال فيها الفئران لانفسها من بطش الهر فتعلق بذيله جرسا تفر كلما سمعته لانه يؤذن بقدوم الهر الى المطبخ .

كذلك يعيد الى الاذهان من البيئة العربية صور البعران والقطا والفرسان والجياد ، ويستعمل الاصطلاح الكلاسيكي « لاذ بأذيال الفرار » والصفة القديمة التي وردت على لسان علي بن أبي طالب « اشباه الرجال » . كل هذه الصور استعملت لتصل بين القارئ والبيئة بتراثها ومعتقدات شعبها وطرق التعبير والتفكير لديها .

فاذا تم له ذلك وانتقل الى تصوير الاستلاب الذي فرضته على الجماهير انظمة لا تهتم بمصلحة الجماهير أو بتطلعاتها أوفى على الغاية بنقل السخرية المرة التي تنفذ كالشفرات الحادة ضد التواكل والتخاذل الذي سيطر على الجماهير طيلة المراحل الماضية فنتج انسان لا يجرؤ على ذبح بعير أو اصطياد طائر ، ويبتعد حذرا خائفا عن لعبة الموت فيلجأ الى المقاهي يملأ بطالته بصيد الذباب .. « ضعف الطالب والمطلوب » . ان امثال هؤلاء الناس ليسوا أحياء بل يرتدون « أقنعة الاحياء » وليس لهم في التاريخ مكان بل هم « في مزبلة التاريخ » حيث يقبع « أشباه الرجال » الذين سفلت مرتبتهم عن مرتبة الفئران .. فبعد كل شيء احتالت الفئران على عدوها وعجزنا نحن عن ذلك .

على أن الذين أشعلوا نار الفتنة بين صفوفنا وشتتوا جمعنا وقسموا أمتنا حتى أتاحوا للعدو أن ينثرنا فتاتا مهانا هم أحقر الناس وأبلدهم. انهم « الطواويس » بكل ما في الطاووس من تيه أحمق وغفلة واعتزاز. وهم أصحاب « السيوف الخشبية » التي تروعنا ولا تروع العدو ... انهم خريجو « مقاهي النضال » ومشعلو « حرب الكلمات » بمقالاتهم السخيفة واخبارهم الكاذبة التي يحررونها ليبرروا سرقتهم وسرقة أسيادهم الطواويس لقوت الشعب . وليس لهم عقاب الا ان يلطخوا بدمهم صفحات منشوراتهم الفارغة . أن موتهم لن يحدث أثرا الا كما تحدث الفقاعة على سطح الماء حين تتفقأ ، بل هم أهون من ذلك وأذل . الا ان الشاعر لا يسترسل في تصوير الحقد الدفين وأحلام الانتقام بل يعود بقسوة الى المشهد الحيواني الذي يسيطر على جو الجماهير المستلبة، هذه الجماهير التي كانت « تلعق » الاكاذيب و « تجتر » الترهات شأنها شأن بقية الحيوانات .

الابيات الوحيدة التي تنجو من الجو الحيواني هي الابيات التي تصور الشهداء « حاملين الوطن المصلوب في كف وفي الاخرى التراب » ثم يليها ذلك التجسيد الرائع « فجراحي فم أيوب وآلامي انتظار ، ودم يطلب ثار » بكل ما فيه من معاناة وتربص ونخوة انسان مجروح .

ولكن من سيطرد « عن الجرح الذباب » ؟ لا أحد .

ان الشاعر في غمرة يأسه من هذا الوضع الخانق ، يمضي في سخريته القاتلة حتى النهاية . فبعد كل شيء ، ان القصيدة التي القيت في دمشق قصيدة رثاء للمرحوم زكي الارسوزي . فلا يترك شاعرنا هذه المناسبة تفوته : اذ يخاطب الميت ، يطلب اليه أن يقوم ويحدثنا بقضيتنا ، لعل كلام الميت يفجر آلام الانتظار ، ويفغر جراح الهزيمة فتغلي الدماء وتطلب ثأرها من واتريها :

آه ، يا قبر حكيم نام بين الفقراء
صامتا ، يلبس أكفان الحداد
صامتا يشعل نار .
قم تحـدث :
نحن موتـى
نحن جيل الموت بالمجان ،جيل الصدقات

وهكذا يلبس الميت أكفان الحداد ـ حدادا علينا نحن الذين نموت دون ثأر ونعيش دون عمل ولا هدف . انه لعمري ، رثاء للاحياء وهجاء للظروف البشعة التي انتجت نماذج جيلنا ، جيل حزيران .

ان هذه القصيدة التي سبكت بأسلوب الحديث الموجع ، صرخة تنبعث من القلب فتترك في الحياة أثرا واخزا كرائحة الكحول . ولا مندوحة عن ذلك أو غرابة فيه ، ما دامت تهدف الى تطهيرنا من الواقع المنحط المتخاذل ، عن طريق تشريحه وعرض أسوأ ما في احشائه. ان هذه الصرخة تريد من كل عربي أن يعاف وضعه ويغادر ضماناته ليقرر مصيره حسب ارادته وتحديات المعركة .

ومع ذلك ، أو بسبب ذلك ، فهي تمتلك سحرا يعتصر الجمال من أقبح الاشياء والوقائع ـ ان بقي في مثل واقعنا جمال ولو لعين فنان ، غير أن جمالها ليس بهرجة ولا حماسة بل يكمن في عمق التحليل وبراعة التصوير ورشاقة الاداء ، وفي البرق المكهرب في انفجارات الحقد واليقين .

ان وراء كل تفعيلة في هذه القصيدة الممتازة انسانا حزينا على هزيمة أمته . غاضبا لهوانها ، حاقدا على العناصر الهدامة بين مفكريها وقادتها ، سريع التأثر وعميق الانفعال ضد ذلك الزيف والادعاء الباطل ـ الا ان انطباعاته تنعكس باستجابة قومية اخلاقية ، تجعله يستخدم كل مهارته ـ وهي كبيرة ـفي اكتشاف الصور الصحيحة والمعبرة عن الوعي الحديث الذي يشارك هو نفسه في ايقاظه وفي تكوينه تكوينا جديدا أكثر ايجابية وتنبها لمزالق الخلافات الداخلية العربية المفتعلة ، والدعاوى الفكرية أو الثورية المزيفة أو المختلفة .

كما ان الموقف القومي الذي انطلق منه الشاعر في قصيدته هذه ، منحها انسانية شاملة دون أن يخرج بها ـ هذا الموقف القومي ـ عن روح العصر وشعارات المرحلة . ففي هذه المرحلة من حياة أمتنا المهانة المهددة،يكون كل حب للانسانية أو للطبقة حبا على حساب الامة بمجموعها شأنه في ذلك شأن الحب الموجه الى الطائفة او الى الاقاليم . فليس يخلفه من حولنا أدعياء الفكر والثورة . وليس ثمة ما هو أكثر انسانية وأبعد تقدمية من الدعوة العربية الى وحدة عربية تحمي شعبنا من الهزيمة والتشرد والجوع والبطالة ـ والنضال العملي المشترك من أجل ذلك كله .

ان فضح الشرط الانساني للامة العربية بسلاح التحليل المنطقي وأداة التصوير الشعري ، هو المهمة الاكثر الحاحا والاشد تأكيدا من كل المضامين المقترحة على الواقع والمحمولة عليه .

ولقد ساهم البياتي بقصيدته هذه في شق درب لما يجب ان تكون عليه البلاغة العربية في مرحلة ما بعد حزيران . وبذلك زاد من مكانته كشاعر في مقدمة شعراء الطليعة العربية منذ أكثر من عشرين عاما .

لقد ساهم الشعر الخطابي في ايقاظ الجماهير العربية على النكبة ، وساعدها في تحديد بعض مواطن الداء الذي أدى الى الهزيمة فضرب في ذلك بسهم وافر في موجة الثورة العربية الثانية التي نفضتها رواسب الماضي الاقليمية والطائفية والحزبية والطبقية ـ وهي رواسب نشأت جميعها عن ضيق الرؤية وغموضها .

فبدلا من أن تتوحد طاقات الثورة العربية في (ثورة ـ طفرة) ضد العدوين الداخلي والخارجي ، تبددت هذه الطاقات بانقسام ذري واصطدامات داخلية ذهبت بامكانية تحول الثورة الى طفرة تشمل الواقع العربي وتغيره في النوع والكم .

ان الثورة المنقسمة يلغي بعضها بعضا . لكن الشعب لا بد أن يصنع ثورته . وان هذه القصيدة من بين القصائد القليلة التي تدعو وتسجل بدء مرحلة الثورة العربية الثالثة . وهي مرحلة قد تشمل بعض الحركات الثورية القائمة ، وقد تتجاوز بعضها الاخر ـ وذلك حسب قدرة هذه الحركات على تلبية مطالب الثورة في شمولها لتطلعات الامة .

ان الطريق الجديد للثورة العربية هو الطريق الجديد للشعر العربي،كي يساهم في توعية الجماهير وتجنيدها لخدمة القضية العربية. وانها لمساهمة لن تنتهي حتى يكون للامة علم أصح من علم الشعراء ، وعندها يعلو الانجاز الكلمة وتسبق الخطوة الموعد .

دمشق — **محي الدين صبحي**

صدر حديثا :

تشريح جثة الاستعمار

تأليف غي دوبوشير
ترجمة ادوار الخراط

هذا الكتاب الجديد محاولة لتعريف الاستعمار واثبات انه ظاهرة اوروبية محض ، وهو يتلمس الصلة بين التعمير والاستعمار ، ويعقد فصلا مطولا عن التفرقة بين الاستعمار والامبريالية ، ثم يشرح كيف بسطت المسيحية ظلها على اوروبا ، وصلة ذلك بالغزوات التي كانت تتخذ من الدين قناعا لاخفاء الجوانب الاقتصادية الاساسية لظاهرة الاستعمار . ويمثل على ذلك بروح الحروب الصليبية ، في حين يثبت بالبراهين والادلة ان التوسع الاسلامي ليس بظاهرة استعمارية لا من حيث الاسس والاصول ولا من حيث التركيب والبنية .

ويتتبع الكتاب تطور ظاهرة الاستعمار عبر عصر النهضة وبدء ظهور الرأسمالية ويقوم بتحليل عميق للصلات بين الرق وبدء عصر الرأسمالية وظهور الطبقات العاملة والتوسع الرأسمالي في آسيا وافريقيا ، وينتهي بتحليل سقوط ظاهرة الاستعمار .

منشورات دار الآداب